

(١)

الترشيد في حياتنا

موضوعا المياه، والإنفاق في رمضان أنموذجاً

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ، **وبعد:**

فإن الدين الإسلامي هو دين الوسطية والاعتدال في كل شيء ، ولقد دعت الشريعة الإسلامية أتباعها إلى الترشيد وعدم الإسراف في استخدام نعم الله (عز وجل) في شتى مناحي الحياة ، قال تعالى ممتناً على خلقه ، موضحاً أثر نعمته عليهم ، وأمرأ لهم بعدم الإسراف في استخدامها: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} ، فالنهى عن الإسراف في هذه الآية عام في الإسراف في كل شيء .

ولقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة في أكثر من موضع على وجوب التحلي بالوسطية والاعتدال والترشيد ، وجعل ذلك من الآداب والقيم التي ينبغي أن يتمسك بها العبد ، وأن يتقرب بها إلى الله (عز وجل) ، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ دِينَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ بَدْرِيًّا * إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} .

(٢)

وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) .

إن الناظر إلى أحوال الناس الآن لا يخفى عليه مظاهر الإسراف والتبذير التي ابتلي بها كثير من الناس ، في المأكل والمشرب ، والملبس والزينة ، في الأفراح بل وفي الأتراح كذلك ، حتى إن ذلك لم يعد قاصراً على من يملك المال فقط ، بل أصبح بعض الفقراء يشاركون الأغنياء في ذلك ، وتعالوا بنا لنقف مع أنموذجين من النماذج التي ينبغي لنا أن نتعامل معها باعتدال ، وأن نسلك في استخدامها سبيل الترشيد ، وحسن الاستعمال :

النموذج الأول: نعمة الماء ، فالماء نعمة من أجل نعم الله علينا ، جعله الله سبباً في حياة جميع المخلوقات ، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} ، ويقول سبحانه ممتناً به على خلقه: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ*أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ*لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} ، ويقول جل شأنه: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيًا كَثِيرًا} ، ويقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ*يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} .

وقد أنزل الله (عز وجل) الماء لعباده من السماء بقدر معلوم ؛ لتحقيق معاشهم ومصالحهم ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} ، وقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

(٣)

مَعْلُومٍ} ، والذي يُفهم من كلام النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن خلق الماء كان قبل خلق السموات والأرض ، حيث قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)، وقد أثبت العلم الحديث استحالة الحياة على وجه الأرض دون الماء ؛ لأنه المكون الرئيس في تركيب الخلية الحية ، حيث يدخل في تكوين جميع خلايا الكائنات الحية بمختلف صورها وأشكالها وأحجامها وأنواعها .

لذا فإن الإسلام ينظر إلى نعمة الماء على أنها ثروة قومية لكل الناس حق فيها ، وعلى كل الناس تجاهها واجب ، وجعل الإسلام حق الانتفاع بها مكفول لجميع الخلق، فلا يجوز لأحد أن يحتكر مصادر الماء ، أو يمنع منها أحداً ، قال (صلى الله عليه وسلم): (النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي الْمَاءِ وَالْكَلْبِ وَالنَّارِ)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ وَهُوَ كَاذِبٌ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ ، فَيَقُولُ اللهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ).

فالماء منفعة عامة لجميع المخلوقات ينبغي التعامل معها بترشيد دون إسراف ولا إفساد ولا احتكار ؛ لذا فمن أساء استخدام الماء لظنه أن الماء كثير فهو يعتدي على حقوق الآخرين ويعتدي على نصيبهم بإهداره لهذه النعمة ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، أن أعرابياً أتى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ الْوُضُوءُ؟ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْضُوءٍ فَعَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ ، ثُمَّ مَضَمَّ وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ وَظَاهِرِ أُذُنَيْهِ مَعَ

(٤)

رَأْسِهِ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : (هَكَذَا الْوُضُوءُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَيَّ هَذَا فَقَدْ تَعَدَّى وَظَلَمَ) ، فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الزيادة على قدر الاحتياج في الاستخدام ظلمًا وإساءة في استعمال هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا.

وقد علمنا النبي (صلى الله عليه وسلم) الترشيده وعدم الإسراف في استخدام هذه النعمة ، وذلك حين مرّ (صلى الله عليه وسلم) بسيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وهو يتوضأ ، ورأى أنه أسرف في استخدام الماء ، فقال : (مَا هَذَا السَّرْفُ يَا سَعْدُ؟). فقال سيدنا سعد (رضي الله عنه): أفي الوضوء سرف؟. فقال (صلى الله عليه وسلم): (نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَيَّ نَهْرٍ جَارٍ).

فهذا هو هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) في استخدام نعمة الماء ، ولو كان في الوضوء ، ولو كان على نهر جار ؛ لأن الإسراف لا علاقة له بالقلة أو الكثرة ، وإلا لكان الأمر بالترشيده مقتصرًا على الفقير وتُرك الغني يفعل ما يشاء ، غير أن الأمر بالترشيده والنهي عن الإسراف جاء عامًا للفقير والغني على حد سواء ، في الندرة والوفرة بلا تفصيل ولا استثناء .

ونؤكد أن نقطة مياه تساوي حياة ، فتوفير نقطة ماء يمكن أن يكون سببًا في حياة إنسان أو حيوان أو طائر أو نبات ، وإهدار نقطة ماء قد يعني إهدار حياة ، كما أن كل نقطة ماء تساوي مالًا مقومًا ، وفقدتها أو إهدارها يعني مالًا مقومًا يذهب هدرًا ، كما أن الحفاظ عليها نقيه بلا تلوث يُعد حفاظًا على ثروة مالية ، وأن تلويثها يعني إهدارًا مائيًا وماليًا معًا ؛ لأن تنقيتها تترجم إلى مال وأثرها على الصحة لا يقوم بمال .

لقد ابتليت مجتمعاتنا ببعض الناس الذين لا يدركون ما للماء من أهمية، فتراهم يهدرونه في الطرقات والشوارع ، أو في تنظيف الحيوانات والسيارات ، أو بترك

(٥)

مصادره مفتوحة... إلخ، وعلى هؤلاء أن يدركوا أن الماء الذي يصلح للشرب لا ينبغي أن يجعل في الغسل ، وما يصلح للغسل لا ينبغي أن يجعل في إزالة القاذورات ، ولنعلم جميعاً أنه لا يحصر على نعمة الماء ، ويقدر قدرها إلا مؤمن يخشى الله تعالى ؛ لأن الماء نعمة كبرى يجب الحفاظ عليها حتى لا يعاقب الإنسان بزوالها ؛ قال تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ } ، وقال سبحانه : { ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، وقال سبحانه : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
إخوة الإسلام :

وكما دعت شريعة الإسلام إلى الترشيد في استخدام المياه ، دعت كذلك إلى ترشيد الإنفاق ، وعدم الإسراف في المأكل والمشرب ، قال تعالى : { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } ، وعلى الرغم من دعوة الإسلام إلى الترشيد والنهي عن الإسراف والتبذير إلا أننا نجد العديد من صور الإسراف والتبذير ظاهرة جليلة ؛ وخاصة في شهر رمضان المبارك الذي يوشك أن تظلنا نفحاته ، وتغمرنا بركاته ، وهذا هو **النموذج الثاني** في حديثنا عن الترشيد في حياتنا.

(٦)

وإذ نحن مقبلون على شهر رمضان نوّكد أنه شهر طاعة وعبادة وعمل ، وإذا كان الإسراف مذموماً على كل حال ، فإن النهي عنه يكون أشد في شهر الطاعة والعبادة والاستجابة لأمر الله (عز وجل) .

ولقد عدّ أهل العلم الترشيده في الطعام والشراب من محاسن أخلاق الرجل ؛ لأن في الترشيده صحة الجسد ، وخفة النفس ، وجودة الدهن ، وصفاء القلب وإنفاذ البصيرة، وفي هدي نبينا (صلى الله عليه وسلم) ما يحث على ذلك ، يقول (صلى الله عليه وسلم) : (ما مَأْآدمي وعاء شراً من بطن ، يحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه ، فإن كان لا محالة : فثُلث لَطَعَامِهِ ، وثُلث لشرايه ، وثُلث لِنَفْسِهِ) ، وقد حثنا (صلى الله عليه وسلم) على التقليل من الطعام قناعة وزهداً ، وعلى عدم إهداره امتناناً وشكراً ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إنَّ المؤمنَ يأكلُ في مَعَى وَاحِدٍ ، وَالكَافِرَ يأكلُ في سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ) .

وَعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (إنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللَّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ ، فَإِذَا فَرَّغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ) .

فلنسأل أنفسنا كم نهدر من المأكولات والمشروبات بإسرافنا وسوء استخدامنا ؟
أهكذا يكون شكر نعمة الله (عز وجل) علينا ، أفينعم علينا ربنا سبحانه بنعمه ثم نهدرها؟ وهناك من هو أحوج إلى هذا الذي يهدر ؛ ليسد به جوعته ، أو يقضي بثمانها حاجته ، ليست هذه أخلاق عباد الله الذين يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، فليحذر

(٧)

من كان ذلك حاله من عقوبة الله في الدنيا والآخرة ، حيث يقول ربنا سبحانه:
{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} .

إن الإسراف في الطعام والشراب في هذا الشهر الكريم ربما يفوت على المسلم كثيراً من أبواب الخير والطاعة ؛ لأن من أكل كثيراً شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ، وفي كثرة النوم ضياعُ العمر ، قال لقمان لابنه: يا بني لا تأكل شبعاً فوق شبع ، فإنك أن تنبذه للكلب خير من أن تأكله ، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: (كُلْ مَا شِئْتَ ، وَالْبَسْ مَا شِئْتَ ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ) .

على أننا نوكد أن الإسراف عامة فتنة وضرر ينبغي الحذر والتحذير منه ، فكم من غني افتقر حينما أسرف في الإنفاق على لذاته وشهواته ، ولقد كان الصحابة (رضوان الله عليهم) من شدة ورعهم يرون أن حصول الإنسان على كل ما يشتهييه صورة من صور السرف ، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: " رأى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في يدي لحمًا ، قال: " ما هذا يا جابر؟" ، قلت: اشتهيت لحمًا ، فاشتريته. فقال عمر: "كلما اشتهيت اشتريت ، أما تخاف هذه الآية: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} .

**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْعُصْبِ وَالرِّضَا ،
وَنَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْقُذُ ، وَقِرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ .**